القتال فى الاسلام

المقدمة

١) ليس الأسلام دين قتال كما يدعي المستشرقون خطأ أو عمداً لغرض معيّن فى أنفسهم بل هو يأمر بالقتال كضرورة للدفاع عن النفس ؛ إذ ليس الذل والاستكانة فى الاسلام مكان .

كانت معارك الرسول حرب فروسية بكل معنى الكلمة ، الغرض منها حماية حرية نشر الأسلام وتوطيد أركان السلام . فلم ينقض عهداً ، ولم يمثّل بعدو ، ولم يقتل ضعيفاً ولم يقاتل غير المحاربين .

وكم أتمنى أن يقرأ هذا البحث غير المسلمين ـ مهما بلغت درجة عداوتهم للأسلام ، ليطمئنوا مع المسلمين ـ مهما بلغت درجة تعصبهم للأسلام ، الى أن القتال فى الأسلام ينطبق على أرقى وأحدث النظريات العسكرية المثالية وقوانين الحرب والحياد الأنسانية ، بل إن هذه النظريات والقوانين تعجز فى كثير من الأحيان عن السمو الى المستوى الرفيع الذي وصلته تعاليم القتال فى الأسلام .

معنى القتال فى الاسلام

٢) هو قتال العدو ، لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى القتال .

متى شرع القتال فى الاسلام ؟

٣) كان القتال محرماً على المسلمين قبل الهجرة ؛ فلما اشتد عداء قريش ، وأخرجوا الرسول وأصحابه من ديارهم وأموالهم ؛ هاجر المسلمون الى المدينة ، فنزلت أول آية فى القتال : « أذن

للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » . لقد خرج الرسول غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه الى المدينة ، وبذلك بدأ القتال (فعلاً) في الاسلام .

أهداف القتال في الاسلام

٤) حماية حرية نشر الدعوة .

ليس من أهداف الحرب في الأسلام (نشر) الدعوة ، بل (حمايتها) ، لأن نشر الدعوة بالقوة معناه الاكراه : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » . ولكن هدف الحرب في الأسلام هو حماية حرية نشر العقيدة وتأمين حرية انتشارها بين الناس وصد الاعتداء الخارجي على بلاد المسلمين : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

إن الحرب في الأسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون بالأعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح شرف لا يجوز أن يلتجيء المحاربون فيها الى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف : احترام للعهد ، والترفع عن الخيانة ، ومؤاساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم وعدم التعرض للنساء والاطفال والشيوخ .

٥) توطيد السلام .

تكون الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها ، فاذا كان لها جيش قوي أحترم العدو ارادتها : فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليها ، فيسود عند ذلك السلام : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل يوف اليكم وأنتم لا تظلمون . وان جنحوا (للسلم) فاجنح لها ... » .

أنواع القتال في الاسلام

٦) قتال المسلمين للمسلمين

هذا النوع من القتال ، هو شأن من الشؤون الداخلية للمسلمين ، فقد فرض القرآن حالة

بغي وخروج عن النظام العام تقع بين طوائف المسلمين بعضها مع بعض ، أو بين الرعية وراعيها فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها ، ويقي المجموع شر البغي والتعادي : « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي (تبغي) حتى تفيء الى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله ، لعلكم ترحمون » . هذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية ، فتلجأ كل منها الى القوة ، فتوجب هـــذه الآية على الأمة ممثلة في حكومتها ، أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق ، وتحاول الأصلاح بينهما فإن وصلت الى ذلك عن طريق المفاوضات وأخذ كل ذي حق حقه ، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال ، وإن بغت إحداهما على الأخرى وأستمرت على العدوان وأبت أن تخضع للحق وتنزل على حكم المؤمنين ، كانت بذلك باغية خارجة على سلطة القانون ، متمردة على النظام ، فيجب على جماعة المسلمين قتالها حتى تخضع وترجع الى الحق . إن القصد من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة وعدم فتح المجال لتفرقها .

٧) قتال المسلمين لغير المسلمين

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان وحماية حرية نشر الدعوة ، وإن القرآن حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وأذلال الضعفاء وتوخى به أن يكون طريقاً الى السلام والأطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والانصاف .

وليست الجزية عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هي مشاركة في حمل أعباء الدولة .

ولا توجد آية في القرآن تدل أو تشير الى أن القتال في الأسلام ، هو لحمل الناس على اعتناقه ، وقد نص القرآن بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن

تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وأقرأ هذه الآية الكريمة ، وهي من أواخر القرآن نزولاً ، وهي تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ؛ ومن يكفر بالأيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

من ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هي : قسط ، وتعاون ، ومصاهرة ... فما أهمها من علاقات ؟ وما أقواها ؟

تنظيم القتال في الاسلام

٨) تقوية المعنويات

يعمل الاسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله ، فيمدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون فى سبيل إنقاذ الضعفاء والبر بالانسان ومقاومة الجبروت والطغيان ، ولأدحاض عوامل الشر والافساد : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ؛ فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .

يستأصل الاسلام جميع النواحي التي ينبعث من قبلها الجبن والخور ، ويحث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله والحق ، فى سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الاخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التي يخشى كسادها ولا المساكن ، لا شيء من ذلك كله يصح أن يحول بين المؤمنين وما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

بمثل هذا الأسلوب القوي ، يحارب الاسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف ، ويغرس في نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة في سبيل الحق ونصرته : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

لقد توخى الاسلام تقوية الروح المعنوية ، وما إمدادات المجاهدين بالملائكة إلا لتطمئن قلوب المقاتلين ، أي لتقوية معنوياتهم على أصح وأوثق أقوال المفسرين .

٩) القوة المادية

يحث الاسلام على إعداد ناحيتين : القوة والرباط .

القوة : تتناول العَدد والعُدد ، وهذا معناه ما عرف وما يعرف من آلات الحرب ووسائل النقل ومواد الأدامة والتموين وكافة القضايا الادارية الأخرى .

والرباط : معناه ما عرف أيضاً من تحصين الحدود والثغور والاماكن الواهنة تجاه العدو .

يستهدف الاسلام من الحث على اعداد هاتين الناحيتين ، تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لارهاب العدو ، حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل : « ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

كما يحث الاسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكّر بالحديد بصورة خاصة ، للاستفادة منه للأغراض العسكرية : « وأنزلنا الحديد فيه (بأس) شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله ؛ إنّ الله قوي عزيز » .

١٠) التنظيم العملي للقتال .

أ — الاعفاء من الجندية .

أسباب الاعفاء من الجنـــدية في الاسلام محصورة في الضعف ، ويشمل المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الانفاق .

لم يجعل الاسلام من أسباب الاعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ، ولا الانتساب الى الجامعات ، ولاحفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدي ، ولا البنّوة لحاكم كبير مما عهدناه في عصور الضعف والانحلال ، بل كان العمل في عصر النبي والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير في جمع القرآن ، الا الخوف من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة في حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً في أن يستحرّ القتل فيهم : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله » .

ب — إعلان الحرب .

يحذر الاسلام انتهاز غفلة العدو أو أخذه على غرة غدراً : « واما تخافنّ من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين » .

إن المسلمين لايخونون أحداً ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد ذلك في القتال .

ج — الدعوة للجهاد .

حذر الاسلام التباطؤ في تلبية داعي الجهاد والتغافل عنه : « يا أيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ، إثّاقلتم الى الارض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل . الاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير » .

د — عقاب المتخلفين .

عاقب الاسلام المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً ، اذ يهجر المتخلف أهلُه حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه وينظر اليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الاّ اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

يتوب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ، ليتوبوا ولا يعودوا الى التخلّف مرة أخرى .

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث في القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته حتى أهل قريته في بعض الأحيان ، بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلّموا المتخلف أو يسألهم العقاب .

هـ — تطهير الجيش .

يأمر الاسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة يعمل لتحقيقها ويبذل كل ما يملك في سبيلها ، وبذلك ينال الفوز في الحرب : « لو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلاً » .

و — أساليب القتال .

ينظم الاسلام مواضعه الدفاعية ، ويوزع وحداته بين تلك المواضع : « وإذ غدوتَ من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » .

ويبتكر القتال بأسلوب « الصف » الذي لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل الكر والفر : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان .

ز — الضبط .

يحث على السمع والطاعة للقيادة العامة ، والثبات في المواقف ، وتجنب أسباب الأخفاق ، والاعتصام بالله واليقين : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا أن الله مع الصابرين » . كما حذر الاسلام من الفرار وبيّن سوء عاقبته : «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ج — السكتمان .

حذر الاسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها الى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا فيما يصل من أنباء قبل الركون اليها والعمل بها : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك إلا قليلا » .

ويقول القرآن : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ط — الهدنة والصلح .

أمر الاسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب إذا جنح اليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : « وإن جنحوا « للسلم » فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم . وأن يريدوا أن يخدعوك فحسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

ي — الأسرى .

خيّر الاسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ الفدية منهم من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فأما منّاً بعد وأما فداء » .

ك — المحافظة على العهود .

حث الاسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرّم الخيانة فيها والعمل على نقضها ، وأرشد الى أن يكون القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذّر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق والوقيعة بالضعفاء : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة » .

١١) شروط القبول للجندية .

لا يقبل فى جيش المسلمين إلا من تتوفر فيه الشروط التالية : —

أ — البلوغ .

اعتبر سن البلوغ السادسة عشرة كما هو الحال في أكثر الدول فى الوقت الحاضر . ولا يقتصر التجنيد على الرجال البالغين ، بل يشمل النساء البالغات أيضاً ، وقد استصحب الرسول النساء فى غزواته ، بل كان يصحب معه أزواجه بالاقتراع .

ولم يعترض أحد على مشاركة النساء فى الحرب على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، فلما جاء العباسيون ظهر من الفقهاء الجامدين مَن أضافوا إلى شروط الخدمة العسكرية شرطاً خامساً ، وهو (الذكورة) ؛ فحرموا الجيش عنصراً فعالاً يزيد فى عدده ومعنوياته .

ب — الاسلام .

ليدافع عن بلاد المسلمين عن عقيدة واخلاص .

ج — السلامة .

تتمتع الجندي بالصحة الكاملة والعقل السليم ، ومن أسباب العجز عندهم العمى والمرض المزمن والمريض المزمن هو الذي طال مرضه .

د — الاقدام .

وهو أن يكون قوي البنية ، عارفاً بالقتال ، قادراً على استخدام سلاحه ، متحملاً مشاق السفر ، غير جبان .

١٢ — النفير .

ينقسم النفير الى قسمين تبعاً لحالتين :

أ — في حالة الدفاع .

أي عند اعتداء العدو على بلاد المسلمين ، فعند ذلك يكون النفير عاما ، فلا يستطيع التخلف عن الجهاد مسلم ، الا يرى بالنفاق ، ويعاقب أشد العقاب .

إن الجهاد فى هذه الحالة فرض عين كما يعبر عنه الفقهاء . والنفير العام ، معناه : دعوة جميع القادرين على حمل السلاح للمشاركة فى الحرب .

ب — في حالة التعرض .

أي فى حالة دعوة قسم من الأمة للفتح ، وعند ذلك يكون النفير خاصاً ، وفى هذه الحالة يكون الجهاد فرض كفاية كما يعبر عنه الفقهاء . والنفير الخاص معناه : دعوة بعض القادرين على حمل السلاح للمشاركة فى الحرب .

الخاتمـــة .

١٣ — أوضحنا مجمل القتال فى الاسلام فيما سلف ، ومن كل ذلك يتضح أن الاسلام يدعو للقتال من حيث هو ضرورة لحماية حرية التوحيد : توحيد الله وتوحيد الناس ، ولتوطيد أركان السلام .

إن الاسلام لا يؤمن بالحروب التي تثيرها العصبية العنصرية ، كما يستبعد الحروب التي تثيرها المطامع والمنافع : حروب الاستعمار والاستغلال والبحث عن الأسواق والخامات واستعباد الرقيق والرجال ، كما يستبعد الاسلام تلك الحروب التي يثيرها حب الأمجاد الزائفة أو حب المغانم الشخصية .

إن السلم فى الاسلام هو القاعدة الثابتة ، والحرب هي الاستثناء !؟

محمود شلبي خطاب
عقيد ركن

المراجع

١ — القرآن الكريم .

٢ — صحيح البخاري .

٣ — محمود شلتوت : القرآن والقتال .

٤ — محمود الالوسي : سفرة الزاد لسفرة الجهاد .

٥ — جمال الدين عياد : نظم الحرب في الاسلام .

٦ — محمد أبو زيد : هدي الرسول .

٧ — محمد الغزالي : فقه السيرة .

٨ — القاضي أبو يوسف : الخراج .

9 — Said Amir Ali : The Sprit of Islam.

10 — Muir : Life of Mahomet.

11 — Margaliouth : Mohammad.

12 — Moulvi : Quran and war.

13 — Hamidullah : The Battelfields of the Prophet Muhammad.